مصعب بن عبد الله الزبيري

وعدنا في قمدمة هذه الطبعة بكتابة فصل عن مصعب بن عبد الله الزبيري الذي قدم شعر ابن أبي ربيعة إلى القدماء، وقد رأى القارئ أننا نقدناه في المحاضرة الثانية نقدًا رآه أستاذنا الدكتور طه حسين إلى الظلم أقرب منه إلى الإنصاف، فلنف بما وعدنا به، ولنحدد بعد ذلك رأينا في ذلك البحث الطويل الذي كتبه مصعب عن عمر، ورآه أستاذنا الدكتور طه من ذخائر الأدب القديم[1].

مصعب الزبيري هو ابن عبد الله بن مصعب أحد الشعراء المجيدين والخطباء المفوهين، الذين نادموا أوائل الخلفاء من بني العباس، وتولوا لهم أعمالًا. وكان خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة على أبي جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزبير، فلما قتل محمد استتر إلى أن حج أبو جعفر المنصور، وأمَّن الناس جميعًا فظهر، وكان يُلقب «عائد الكلب» لقوله:

ما لي مرضتُ فلم يَعُدني عائدٌ ... وصدود عبدكُم عليَّ شديد
منكم ويمرض كلبكم فأعودُ ... وأشدُّ من مرضي عليَّ صدودكم

وذكر الربيع بن يونس أنه دخل على المهدي وإذا هو يكتب على الأرض بفحمة قول عبد الله بن مصعب:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها ... مقالة واشٍ أو وعيد أمير
فلن يحجبوا عيني من دائم البكا ... ولن يخرجوا ما قد أجنَّ ضميري
وما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطون الهوى مقلوبةً لظهور
إلى الله أشكو ما أُلاقي من الجوى ... ومن نفس يعتادني وزفير

(١) حديث الأربعاء ص ١٤٠ ج ٢.

ويقول: أحسن والله عبد الله بن مصعب ما شاء[1].

ونعود إلى مصعب بن عبد الله فنذكر أننا لما نصل إلى الوقوف على تفاصيل حياته الأدبية، وإنما عرفنا مما ينقل عنه صاحب الأغاني أنه كان من كبار الكتاب في القرن الثالث، وإليه يرجع الفضل في تدوين أكثر أخبار المغنين والشعراء، وعبارته نقية واضحة سليمة لا يشوبها تكلُّف ولا غموض. وله شعر جيد لم يبق منه إلا القليل، وفيه على نزارته دليل على أنه كان من المبدعين.

ويظهر مما قرأناه من أخباره المتفرقة أنه كان يعيش في جماعة لها حظ من المال والجاه والجمال؛ فكانت حياته لذلك فيها نفحة وجدانية لا يظفر بها إلا من استظل بأعطاف الحسن الجامح والدَّل الغَضُوب. كان متصلًا بأحمد بن هشام أخي علي بن هشام الذي كتب إليه إسحاق الموصلي: جُعلت فداك، بعث إليَّ أبو نصر مولاك بكتاب منك إليَّ يرتفع عن قدري، ويقصر عنه شكري، فلولا ما أعرف من معانيه، لظننت أن الرسول غلط بي فيه، فما لنا ولك يا أبا عبد الله تَدَعنا حتى إذا نسينا الدنيا وأبغضناها ورجونا السلامة من شرها، أفسدت قلوبنا، وعلقت أنفسنا، فلا أنت تريدنا، ولا أنت تتركنا، فبأي شيء تستحل هذا؟ أما ما ذكرته من شوقك إليَّ، فلولا أنك حلفت عليه لقلت:

يا من شكا عبثًا إلينا شوقه ... شكوى المحب وليس بالمشتاق

لو كنت مشتاقًا إليَّ تريدني ... ما طِبت نفسًا ساعة بفراقي

وحفظتني حفظَ الخليل خليلهُ ... ووفيت لي بالعهد والميثاق

هيهات قد حَدَثتْ أمورٌ بعدنا ... وشُغلتَ باللذات عن إسحاق

---

(١) راجع أخباره في الجزء العشرين من الأغاني.

قد تركتُ جُعلت فِداك ما كرهتَ من العتاب في الشعر وغيره، وقلت أبياتًا لا أزال أخرج بها إلى ظهر المربد[1] واستقبل الشَّمال، وأتنسم أرواحكم فيها، ثم يكون ما الله أعلم به، وإن كنت تكرهها تركتها إن شاء الله.

ألا قد أرى أن الثواء قليلُ ... وأن ليس يبقى للخليل خليل

وإني وإن مُلِّيت في العيش حقبةً ... كذى سفرٍ قد حانَ منه رحيل

فهل لي إلى أن تنظر العين مرةً ... إلى ابن هشام في الحياة سبيل

فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة ... وفي النفس منه حاجة وغليل

وقد تورط مصعب في صحبة هذه الجماعة، ولحقه من تقلُّبها بعض الشر والسوء، حين وقعت الجفوة بين أحمد بن هشام وإسحاق بن إبراهيم، فقد لقي أحمدُ مصعبًا فقال له: أما تستحي أنت وصباح بن خاقان المنقري وأنتما شيخان من مشايخ المروءة والعلم والأدب أن يشيد بذكركما إسحاق في شعره فيقول:

قد نهانا مُصعبٌ وصباحٌ ... فعصينا مصعبًا وصباحا

عَذَلا ما عذلا ثم ملا ... فاسترحنا منهما واستراحا

فقال له مصعب: إن كان قد فعل فما قال إلا خيرًا. إنما ذكر أننا نهيناه عن خمر شربها، أو امرأة عشقها، وقد أشاد باسمك في الشعر بأشد من هذا. قال: بماذا؟ قال بقوله:

---

(١) المربد -بالكسر ثم السكون وفتح الباء-: اسم موضع كان أهم أسواق البصرة، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. والمربد في الأصل كل شيء حبست فيه الإبل، وأنشد الأصمعي:

بيت بأبواب القوافي كأنني ... أصيد بها سربًا من الوحش نزعا

عواصي إلا ما جعلت وراءها ... عصا مربد يغشي نحورًا وأذرعا

وصـــافية تُعـــشي العيـــون رقيقـــة ... رهينـــة عـــام في الـــدنان وعـــام
أدرنـــا بهـــا الكـــأس الرويـــة موهنًـــا ... مـــن الليـــل حتـــى انجـــاب كـــل ظـــلام
فـــما ذَرَّ قـــرن الـــشمس حتـــى كأننـــا ... مـــن العِـــيِّ نحكـــى أحمـــد بـــن هـــشام

وكان صباح بن خاقان نديمًا لمصعب بن عبد الله، فقال عبد الرحمن بن أبي عبد الرحمن -وكان خليعًا من أهل البصرة-:

مـــن يكـــن إبطـــه كآبـــاط ذا الخَلـــ ... ـــقِ فإبطـــايَ في عـــداد الفقـــاح[1]
ليَ إبطـــان يرميـــان جليـــسي ... بـــشبيه الـــسلاح بـــل بالـــسلاح
فكـــأني مـــن نـــتن هـــذا وهـــذا ... جـــالسٌ بـــين مـــصعب وصـــباح

وقد ظل مصعب وفيًّا لإسحاق الموصلي إلى أن مات، فرثاه بقصيدة بليغة نقتطف منها الكلمة الآتية:

أتـــدري لمـــن تبكـــي العيـــون الـــذوارفُ ... وينهـــلُّ منهـــا واكـــف ثـــم واكـــف
نعـــم لامـــرئ لم يبـــق في النـــاس مثلـــه ... مفيـــد لعلـــم أو صـــديق ملاطـــف
تجهـــز إســـحاق إلى الله غاديًـــا ... فللـــه مـــا ضـــمت عليـــه اللفـــائف
ومـــا حمـــلَ الـــنعشَ المزجَّـــى عـــشية ... إلى القـــبر إلا دامـــع العـــين لاهـــف
صـــدورهُم مَـــرْضى عليـــه عميـــدةٌ ... لهـــا أزمـــة مـــن ذكـــره وزفـــازف[2]

-

ذهبـــت وخلّيـــت الـــصديق بعولـــةٍ ... بـــه أســـف مـــن حزنـــه مـــترادفُ
إذا خطـــرات الـــذكر عـــاودن قلبـــهُ ... تتـــابع مـــنهن الـــشئون النـــوازفُ

(١) الفقاح جمع فقحة، وهي حلقة الدبر.
(٢) عميدة: مجروحة.

حبيبٌ إلى الإخوان يزون ما له ... وآت لما يأتي امرؤ الصدق عارف
هو المَنُّ والسَّلْوَى لمن يستفيده ... وسمٌّ على من يشرب السم زاعف
بكيت داره من بعده وتنكرت ... معالم من آفاقها ومعارف
هي الدار إلا أنها قد تخشَّعت ... وأظلم منها جانب فهو كاسف
وقد كان فيها للصديق معرَّسٌ ... وملتمسٌ إن طاف بالدار طائف

سريعٌ إلى إخوانه برضائه ... وعن كل ما ساء الإخلاء صارف
أرى الناس كالنسناس لم يبق منهم ... خلافك إلا حشوةٌ وزعانف

أراء مصعب في النقد:

كان مصعب من الكتاب والنقاد الممتازين، ولكن نقده لم يصل إلينا بطريقة تُفصِّل ما كان له من قواعد وأصول، فلم يبق إلا الاستئناس بما تفرق من آرائه، لنرى كيف كان يفهم الشعر، وكيف كان يحكم على الشعراء.

رأيناه يقضي في شعر العباس بن الأحنف وعمرو العراف، فيقرر أنهما «ما ابتذلا شعرهما في رغبة أو رهبة؛ ولكن فيما أحباه، فلزما فنًّا واحدًا لو لزمه غيرهما ممن يكثر إكثارهما لضعف فيه».

وهذا نظر بعيد من مصعب، فإن الشاعر الذي يكثر في فن واحد ويجيد مع الإكثار، أولى بالتقدمة ممن يجيد في طائفة من الفنون، وفي كلامه تقدير لصدق العاطفة العاطفة التي تعد أساسًا لجودة الشعر البليغ.

وقيل له: إنَّ الناس يستبردون شعر العباس بن الأحنف، فقال: لقد ظلموه! أليس هو الذي يقول:

قالت ظلومُ سَمِيَّةُ الظلم ... ما لي رأيتك ناحل الجسم

يا من رمى قلبي فأقصده ... أنت العليم بموقع السهم

وهو في هذا يذكرنا بكثير من القدماء الذين كانوا يحكمون للشعراء أو عليهم بشواهد من شعرهم، من غير أن يبينوا مواطن الضعف ومواقع القوة، وكذلك كان يرى أبا العتاهية أشعر الناس إذ قال:

تعلقتَ بآمالٍ طوال أي آمال

وأقبلت على الدنيا مُلحًّا أي إقبال

أيا هذا تجهَّز لـ ... ـفراق الأهل والمال

فلا بد من الموت على حال من الحال

ولعل أظهر آثار مصعب في النقد هو كلمته المطولة في خصائص شعر عمر بن أبي ربيعة، وقد تكلمنا عنها في المحاضرة الثانية، وأشار أستاذنا الدكتور طه في حديث الأربعاء إلى أننا أسرفنا في نقده، وأن مصدر هذا الإسراف أننا لم نقدر كما ينبغي اختلاف المُثل الأدبية باختلاف العصور والأجيال.

وهذا حق؛ إذ كان النقد يتأثر باختلاف الأذواق، وأنه لا يجب أن يرضينا ما كان يرضى أسلافنا من قبل، ولكن أليس في كلام مصعب بعد نقدنا له شيءٌ يستحق التقدير؟

لقد بحثت في ذلك طويلًا، فرأيت في كلمة مصعب ناحية لها حظ عظيم من الأهمية؛ وذلك أنه أراد التنويه بما أبدع ابن أبي ربيعة من التعابير، وأحدث من الصُّور: من ذلك تحبير ماء الشباب في قوله:

وهـــي مكنونـــةٌ تحـــيَّر منهـــا ... في أديـــم الخـــدين مـــاء الـــشباب

وغم الطير في قوله:

سراعًـــا نغـــم الطـــير إن ســـنحت لنـــا ... وإن تلقنـــا الركبـــان لا نتخـــبَّر

ومخالفته بسمعه وطرفه في قوله:

ســمعي وطــرفي حليفاهــا عــلى جــسدي ... فكيــف أصــبر عــن ســمعي وعــن بــصري

وإغلاقه رهن منّى وإهداره قتلاه في قوله:

فكـــم مـــن قتيـــل مـــا يُبـــاء بـــه دمٌ ... ومـــن غَلـــقٍ رهنًـــا إذا لفَّـــه مِنـــى[1]

وجنيه الحديث في قوله:

فاجتنينـــا مـــن الحـــديث ثـــمارًا ... مـــا جنـــى مثلهـــا لعمـــرك جـــاني

وقياسه الهوى في قوله:

وقـــربن أســـباب الهـــوى لتـــميم ... يقـــيس ذراعًـــا كلـــما قِـــسْن إصـــبعا

وتشكيه الذي أشجى فيه إذ يقول:

لعمـــرك مـــا جـــاورت غُمـــدان طائعًـــا ... وقـــصر شـــعوب أن أكـــون بـــه صـــبًّا[2]

---

(١) ما يباء به دم: لا يؤخذ له بثأر -وغلق الرهن في يد المرتهن إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط.

(٢) غمدان: قصر باليمن كان من أعاجيب عصره. وقصر شعوب كذلك من قصور اليمن.

ولكنَّ حمى أضرعتني ثلاثة ... مجرَّمة ثم استمرت بنا غِبا[1]

وحتى لو أن الخُلد يعرض إن مشت ... إلى الباب رجلي ما نقلت لها إربّا[2]

فإنكِ لو أبصرت يوم سُويقةٍ ... مُناخي وحبسي العيس داميةً حُدبا[3]

ومصرع إخوان كأن أنينهم ... أنين مكاكي فارقت بلدًا خصبا[4]

إذًا لاقشعرَّ الجلد منك صبابةً ... ولاستفرغت عيناك من عبرة سكبا

وكلمة مصعب مثبتة في الجزء الأول من الأغاني، فليرجع إليها القارئ فقد يرى غير ما نراه.

(١) أضرعتني: أضعفتني وأذلتني. مجرمة: كاملة -والغب من الحمى ما تأخذ يومًا وتدع يومًا.

(٢) ما نقلت لها إربًا: ما حركت لها عضوًا.

(٣) حدب جمع حدباء وهي الدامية التي تقوس ظهرها هزالًا.

(٤) المكاكي جمع مكاء، وهو طير يشبه القبرة أبلق الجناحين.